. . . ثم ارادت ان تجعل منه رجلا !

للدكتور محمد عوض محمد

لقد قضى الأمر ، وزوجت منه ! . . .

فيا للعجب ! كيف ألم بالدهر هذا الحادث الخطير ، والشمس مابرحت فى السماء تجرى لمستقر لها ، والأرض مازالت تدور حول محورها المائل المنحرف ، وتطوف من حول الشمس وتمعن فى الطواف ؟ . والقمر ؟ أجل والقمر لم يزل ينتقل بين منازله المقدرة له من الأزل . . فكيف اذن نزل ذلك الخطب ؟

أكبر الظن أن القمر المذكور هو سبب تلك النكبة . أجل هو وحده المسئول عن تلك الكارثة . فان ليلى قد التقت بأحمد من قبل مرارا ، فى وضح النهار ، فلم تر فيه الا فى حسن الصورة ، ولم تحس نحوه ميلا ولا حبا . . لكنها التقت به بعد ذلك على شاطىء النيل ، فى ليلة يلمع فيها بدر التم ؛ فاذا القمر يوسوس فى صدرها ، ويثير فى فكرها الأوهام ، ويريها صورة ذلك الفتى ، وكأنها تمثال لكل مايتوق اليه قلب المرأة التواق من سحر وجمال وشعر وأحلام أما صوته المتكسر الواهى ، فكان يرن فى أذنيها كالموسيقى العذبة لكنها كانت من طراز موسيقى شوبرت الرقيقة ، لا موسيقى واغنر العنيفة القوية . ولقد ساورها الشك لحظة ، وأرادت أن تسأل نفسها : «أنى لرجل كامل الرجولة أن يكون فى صوته كل هذه الرقة وهذا التكسر ؟ » لكن القمر لم يدعها طويلا تتلاعب بها الشكوك ، بل أوحى اليها بسرعة أن ذلك من أثر العشق الذى استحوذ على أحمد ، فرقق من صوته وأكسبه كل هذا اللين والعذوبة والخور ! وكان القمر فى هذا كاذبا ؛ والحقيقة أن أحمد كان من ذلك الجنس الناعم الخائر الذى يبرأ منه الرجال والنساء على السواء .

فلم تنقض تلك الليلة المقمرة الساحرة حتى كان الحب مالئا قلب ليلى ؛ وقد جعل على عينيها غشاوة لن يزيلها الا تعاقب الليل والنهار .

وهكذا تم النصر للقمر الماكر ! ويا ليت الزهرة كانت فى السماء تلك الليلة ، اذن لمحضت ليلى النصح ، وفتحت عينيها لما هو محدق بها من الخطر ؛ لكن الزهرة لم تكن — ياللاسف ! — فى السماء . وهل فى الدهر سواها نصير للفتيات يرد عنهن الغوائل ، ويهديهن سواء السبيل ، ويأخذ بأيديهن كى لايتردين فى كل هوة مخيفة ؟ أما القمر فنصير الفتيان ، وعلى الخصوص أولئك الفتيان الخائرون المتكسرون ، الذين يشبهونه بوجوههم المليحة الناعمة الشاحبة الخالية من كل قوة ونخوة . . ولم تك إلا أسابيع قلائل ، حتى زوجت منه وقضى الأمر ! والشمس مابرحت فى السماء تجرى لمستقر لها ، والأرض ما انفكت تدور حول محورها المائل المنحرف

* * *

ثم كان شهر العسل !

فأما الشهر فلم يكن كشهرى وشهرك أيها القارىء ، مؤلفا من ثلاثين يوما ، أو واحد وثلاثين يوما على أكبر تقدير . بل لقد استطاع الحب — وهو ذلك الساحر البارع — أن يمسه بعصاه ، فاذا هو يمتد من أول مايو الى آخر اكتوبر ؛ وإن يوما عند الحب كألف يوم مما تعدون !

هذا ما كان من أمر الشهر ! وأما ما كان من أمر العسل فقد كان أريا شهيا ، وشهدا جنيا ، وحلاوة وعذوبة ليس وراءهما حلاوة ولا عذوبة ، وخمرة سائغة ، لم تتناولها بالتحريم شرائع السماء ، ولا قوانين الولايات المتحدة .

وظلا غارقين فى ذلك البحر الخضم ، فلم تنتبه ليلى ، ولم تشأ أن تنتبه . وان كان فى الغرق كل هذه السعادة والنعيم ، فالويل لمن يفكر فى انقاذ الغرقى !

وسيقول الناس : ان الحب يعمى ويصم ، وأنا أربأ بالقارىء أن يكون ممن يرون هذا الرأى ، فان العمى والصمم هما — فيما يقال — عاهتان ، وما أبعد الحب — وأبعد به ! — أن يكون مسببا للآفات والعاهات ! وانما الصواب أن نقول ان الحب يضع على العينين عصابة من ذلك الطراز الجميل الذى يعصبون به عينى الثور حين يدور بالساقية ، فلا يزال يدور ثم يدور ، وهو بحسب نفسه قد طاف حول الكرة الأرضية .

وكذلك قد صور الحب لليلى أنها قد طافت العالم وأحرزت الدنيا بأسرها .

كل هذا ، والشمس مابرحت فى السماء تجرى لمستقر لها ، والأرض مازالت تدور حول محورها المائل المنحرف

* * *

ثم لم يكن بد من أن يجىء اليوم الهائل المحتوم ؛ بعد أن ولى الربيع ، وذهب فى اثره الصيف ، وأتى بعدهما الخريف الذى لايدارى ولا يمارى ، بل يظهر الحقيقة عارية مجردة جافة .

وفى يوم من أيام الخريف بسط الدهر يديه القويتين فجأة ، وكشف الغطاء عن عينى ليلى !.

نظرت ، فلم تصدق الرؤيا التى رأتها ... أجل وقد حسبتها رؤيا مما يراه النائم ، الغارق فى نومه . وكبر مقتاً عندها أن يكون هذا مما تراه هى .. حتى فى الحلم ... فجعلت تغمض عينها ، ثم تفتحهما ، مرارا ... لا ! انها ليست نائمة ، وهذا الذى تراه ليس حلما ! .. هو الحقيقة اذن ؟ . أجل وليس بمجديها أن تحاول انكارها .. صحيح اذن أنها رضيت أحمد هذا زوجا ، وأنه — ياللهول ! — قد شغفها حبا فلم تكترث للناصحين والعذال .. رضيت بذلك الكائن الممسوخ زوجا ، ليكون لها فى الحياة رفيقا وعدة وذخرا . ذلك المخلوق اللين المتكسر الخائر ، الذى ليس فى قلبه همة ، ولا فى رأسه نخوة ، ولا مطمح له فى الحياة ولا مأرب ، ولا عزمة له ولا إرادة ! ان الناس تصفه ظلما بأنه يشبه النساء ، وهذا كذب ، بل كفر ، بل شر من الكفر ! . ان النساء أجل واكرم من أن ينتسب اليهن هذا المخلوق ، هذا اللين المستخذى ، هـــذا النا عم الخائر ، هذا التافه ذو الوجه (الكارت بوستال) . ذو الصورة السنمائية الفاترة ، الخالية من كل روح ومعنى .

أيمثل هذا الشيء تجن هى ؟ .. ليلى ؟ ليلى التى طالما جشم أبوها نفسه وجشمها كل عناء وبلاء فى سبيل تأديبها وتثقيفها ، لايألو فى ذلك جهدا ولا مالا ولا وسيلة ! ألم يهيىء لها الأسباب لتتلقى العلم فى مصر على خير أساتذة مصر ، وفى انجلترة فى خير معاهد انجلترة وأعظمها جميعا ؟ .. أجل وما أشد سرورها يوم الفت نفسها ، وهى بنت النيل ، فى نيونهام كولدج تتلقى العلم هى وبنات النبلاء جنبا لجنب ؛ وكان نجمها الساطع محلقا فى السماء لايعلو عليه نجم ، ولها بين صواحبها منزلة ومكانة وشهرة قد جاوزت نيونهام الى جميع دور العلم بكامبردج ؛ وملأ الأعجاب بليلى المصرية صدور الشباب من الطلبة ، والشيب من الاساتذة المحنكين .. ولقد طالما حاول الكثير من كرام الفتيان ان يتقرب اليها ، فكانت ترده فى حزم ولطف وتواضع لم يزدها الا سموا وتقديرا ..

ثم تلك الرسالة البديعة التى كتبتها عن الفلسفة العربية ؛ فكانت نصرا باهرا ، وتاجا براقا لتلك السنين الخمس ، التى قضتها فى جد ودأب لاتعرف الدعة ولا الهوادة .

وهبطت مصر ، تزدحم فى صدرها الآمال ، وتريد أن تتبوأ مكانها بين قومها لكى تعمل على نصرهم وسؤددهم ، بكل ما أوتيت من قوة وهمة ؛ ولم تجد بأسا فى أن يكون لها فى جهادها العنيف رفيق يشد أزرها ويقوى ساعدها . ولم تكن ليلى من النساء اللوانى أغلقت قلوبهن دون الحب برتاج غليظ ... ولكن شاءت المقادير العجيبة أن يكون رفيقها الذى تختاره وترتضيه هو ذلك المخلوق الناعم الخائر ذلك اللين المستخذى ، ذا الوجه الكارت بوستال

والشمس مازالت فى السماء تجرى لمستقر لها ، والأرض مابرحت تدور حول محورها المائل المنحرف .

* * *

وجلست ليلى وهى تطل من نافذتها ، تنظر الى النيل اذ يندفع تياره من الجنوب الى الشمال ، والى أشجار الصفصاف ، وقد تدلت غصونها الى الماء كأنها عبرات تسيل ؟ والى السحب الحمراء قد خلفها الغروب . ومن دونها الأهرام قائمة على الأفق ، والى الزهرة فى السماء تتألق وترقص بين السحاب .

أدركت ليلى أنها أخطأت .. أجل أخطأت برغم كل ما وعاه صدرها من علم وأدب وحكمة وفلسفة ، وارتكاب الخطأ حق طبيعى لكل رجل ، بل ولكل امرأة أيضا ... الحيوانات لاتخطىء ، لأنها تصدر فى أعمالها عن الغريزة ، والغريزة معصومة عن الزلل . أما أبناء آدم وبناته فيصدرون عن العقل ، وهو كثير العثرات .

اذن ليس ببدع أن تكون ليلى قد ارتكبت خطأ ، وليس بعد الخطأ الا محاولة الاصلاح .. لكن كيف السبيل الى اصلاح هذا الخطأ ؟ ليست الأمراض سواء فى قبولها للعلاج ، وليست الأخطاء سواء فى قبولها للاصلاح .

حاولت ليلى أن تلتمس الالهام مما تعلمه من حكمة وفلسفة . ولكنها لم تلبث أن تبينت أن ليس هذا بمجديها نفعا . ان للفلاسفة فى هذا الموضوع الخطير اراء قلما تسمن أو تغنى ...

ان (نيتشه) الذى تحبه لم يتزوج ، و (كانت) العظيم عاش عمره الطويل لم يتزوج ، وابو العلاء لم يحن على أحد ، و(شوبنهاور) كثيرا ما كان يؤثر صحبة الكلاب على الخلان والاصدقاء ؛ وسقراط وافلاطون ؟ ... أولى بها ألا تفكر الآن فى سقراط وافلاطون ... لا .. ليس بنافعها أن ترجع الى القدماء ، كى يحلوا لها مشكلتها الحديثة .. لابد لها ان تركن الى نفسها وأن تعتمد على فلسفتها هى ..

أجل وان لها فى هذا الامر لفلسفة خاصة ، ورأيا ستحاول انفاذه : انها سوف تصلح أمر أحمد ، وسوف تقوم معوجه ، وسوف تجعل منه رجلا ... هذا المرام البعيد ، الذى يراه الناس محالا ، كانت تحس فى اعماق صدرها أنه ليس بمحال . أتراها

وقفت الى العثور على ذلك الحجر العزيز : حجر الفلاسفة فأمست قادرة على أن تحيل الخسيس نفيسا ، والدنيء رفيعا ؟

كلا ! ان ليلى لن تحاول أن تنال بغيتها عن طريق المعجزات ؛ بل لقد رأت فى أمر زوجها رأيا ، حسبته رأيا سديدا ، وكان وليد تدبير طويل ، وتفكير عميق . . رأت أن أحمد تعوزه الرجولة ، فى مظهره ومخبره ، فى جسده وفى روحه ، فى حركاته وتفكيره . وقد علمت أن ليس اصلاح الروح بالشيء اليسير ؛ لكنها تستطيع — على الأقل — أن تكسبه مظهر الرجال . فلتأمره اذن — وهو لها طيع ذلول — أن يلبس الخشن من الثياب ؛ وأن ينعل الخشن من الأحذية ؛ وأن ينطلق الى ضيعة ابيها فيقيم هنالك شهرين أو ثلاثة أشهر ؛ يعمل فى حقولها كل يوم ، حارثا وزارعا وحاصدا ، وعليه أن يرسل لحيته وشاربه حتى يغطى الشعر وجهه . . . ثم يعود اليها بعد ذلك ، وقد لبس حلة الرجولة سابغة شاملة : فمن يد خشنة الملمس ، الى ذراع قوية متينة ؛ الى وجه قد لوحته الشمس يكسوه شارب طويل ولحية مرسلة . أما صوته الناعم الفاتر ، فلا بد أن يكتسب شيئا من الخشونة من كثرة ندائه للثيرة ، وصياحه خلف المحاريث

وكانت ليلى تعلم أن هذه كلها ظواهر ، ليس فيها نفع ولا غناء ، ولكنها كانت مؤمنة بان اصلاح العرض سيفضى الى اصلاح الجوهر ، واصلاح الاناء وسيلة لاصلاح الشراب ؛ وأن أحمد لا يلبث ان يكتسب مظهر الرجولة ، حتى تتسرب بعد ذلك الى لحمه ودمه بفضل مابين الروح والجسد من رباط متين .

وأحسبها قد اقتبست هذا الرأى من بعض مادرسته من فلسفة وحكمة ؛ لكنها كانت أشد ايمانا به من الحكماء الذين قالوا به . وما هى الا أيام قلائل حتى مضت فى تنفيذه . فانطلق احمد الى الريف وبقيت ليلى وحدها الليالى والأيام ترقب دورة الفلك ؛

والشمس مابرحت فى السماء تجرى لمستقرلها ، والأرض مافتئت تدور حول محورها المائل المنحرف . . .

* * *

وفى مساء يوم عبوس متجهم من أيام أمشير ؛ تلبدت السماء بسحاب أسود قاتم ، وكان يعدو من المغرب الى المشرق : طبقات بعضها فوق بعض ؛ تحمله فى السماء ريح عاصف . . وعلى الأرض زعزع نكباء تثير الموج على صفحات النيل ، وتهز جذوع الصفصاف هزا عنيفا ، وقد ثارت الزوابع تحمل الغثير المطار الى كل عين وكل انف . . ومشت ليلى نحو النافذة فأغلقتها فى بطء شديد وحزن شديد ، مطأطئة رأسها فى كآبة وكمد . ثم سقطت على سرير ممدود وجعلت تسفك العبرات وتعول بالبكاء . . بصوت لولا دوى الريح لأسمع من بالدار . وما أشد حاجتها فى ذلك المساء الى الوحدة والى البعد عن الناس والى البكاء تطفىء به ذلك الجحيم المستعر فى صدرها وفى أحشائها !

مسكينة ليلى ! ان فلسفتها قد خابت ، وتجربتها قد فشلت ! وكل هذا التقدير والتدبير والسعى والاحتيال لم يصادف الا حبوطا ألما ، وخيبة قاتلة . ان الداء كان عضالا ، والسم قد سرى الى الرأس والأوصال ، والعرق والعصب ، فاستفحل واستمكن ، ولات حين علاج ، ولات حين شفاء . . .

واختلط الحزن فى قلبها ، والح عليها من كل جانب ، فليس يدرى أى خطبيها أشد وأقتل : فشل تلك التجربة وذلك الرأى السديد الذى حسبته زبدة الحكمة وخلاصة الفلسفة ، أم كارثتها فى هذا المخلوق الذى بات حتما عليها أن ترضاه ، وهو دون الرضى ، وأن تعتمد عليه فى الحياة ، وهو ذلك الرطب العاجز المائع

لقد فشل تدبيرها فشلا ذريعا ، فان المسكين لم يطق الريف ، ولم يلبث أن اسأمه وأضناه ، فقضى أيامه هناك بين سقم ، وبين الافاقة من سقم ، حتى أشفقت عليه ليلى وأذنت له أن يعود . . أما ذلك الشعر القليل الذى نبت على خديه وشفتيه ، فلم يك الا غشاء رقيقا تافها ، لم يقربه من الرجولة قيد شعرة .

مسكينة ليلى ! ان الرزء الذى رزئته لشديد . ولم يبق لها من وسيلة تتوسل بها سوى الصبر . والصبر أوهى الوسائل . . . وما أشد حاجتها لأن يكون لديها من هذه الوسيلة الواهية ذخيرة لا تنفد ، ذخيرة تكفيها العمر كله . . . لابد أن يكون فى العالم شهداء يحملون الارزاء ، فلا رأى اليوم الا أن تكون كاحدهم . ولئن كان رزؤها هذا من صنع يديها ، فما أحقها بحمله والاضطلاع به . . مدى الحياة !

لقد سخرت منها المقادير ، حين أرتها الحياة حلما زاهيا ، وزهرا نضيرا ، واليوم وقد آن للزهر أن يحول ثمرا ، وللدوحة أن تؤتى أكلها ، اذا الاقدار تسلط عليها هذا السقم العضال يذوبها ويفنيها لم يبق لها بد اذن من ان تودع هذه الأحلام جوف الثرى ، فى غير رحمة ولا هوادة ، وتستقبل هذا العهد الجديد ، عهد الشهداء الصابرين فى قوة وجلد :

لاجرم ان الانتقال الى تلك الحال ليس بالشيء اليسير ، ولكن